

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

جبرائيل نقلا باشا — مصادر الثروة اللغوية — محاكاة القاد ١

جبرائيل نقلا باشا

قرأت أكثر ما كتبت في رثاء الصحفي الكبير جبرائيل نقلا باشا، ورأيت كيف خُتمت حياته بتبجيل وتعظيم وإجلال، فإذا بقي من القول بعد تلك الصحائف من جيل الرثاء

لم يبق إلا أن أشير إلى بعض السر في نجاح ذلك الرجل، لأن حياته تصلح قدوة لرجال الأعمال

أذكر أولاً أن الرجل جعل الناية من حياته أن يكون صاحب أكبر جريدة في الشرق، وهي غاية تمثل له بوضوح، وبدت له في عظمية تستحق بذل العمر كله في صيانتها من عوارض الضعف والاضمحلال

وأذكر ثانياً أن الرجل رأى أن الأعمال العظيمة لا تنهض بغير معاونين أمناء، فجعل من خطته أن يكون الاشتراك في تحرير «الأهرام» ضمانة من المتاعب المعاشية بحيث لا يحتاج من يعمل معه إلى التفكير في محبة غيره، ولو كان ذلك الغير شخصية تحمل أضخم الألقاب

وأذكر ثالثاً أن الرجل نزه جريدته عن الأذى بجميع صوره فماش بلا أعداء، وهذا الجانب من الحياة الصحفية يوجب ألواناً من جهاد النفس لا يصبر عليها غير كبار القلوب والذي يتصور ما صنع هذا الرجل لجريدته يعجب من براعته وقدرته على التصرف، فللأهرام مكاتب كثيرة في الغرب والشرق، وما كان يمكن أن تقوم تلك المكاتب بدون أن تكون الثقة بهمة وكفائته وأمانته مضرب الأمثال

وهناك جانب سكت عنه من رثوا هذا الرجل، فاذ ذلك الجانب؟

هو فهمه الدقيق الأحوال الجوية، فكان يعرف ما يلبس

لكل وقت، فلم يمرض للحر ولا للبرد، وكانت الحكومات المتعاقبة تنجب من فهمه ذلك، ولا يؤذيها أن يكون في مصر صحفي يعرف اتجاهات الرياح قبل المهبوب

ومع هذا قتلته مروحة غزت صدره بهواء مجهز عن دفعه الأطباء، ولكن أجل كتاب. وسبحان من تفرد بالبقاء

مصادر الثروة اللغوية

من الكلمة التي نشرتها «الرسالة» لحضرة الأستاذ عبد الحميد عنتر فهمت أنه يقتصر الحصول اللغوي على المأثور عن «العرب العرياء» وهي الأمة التي شهدت العصر الجاهلي وصدر العصر الإسلامي، وفي هذا القول رجعة إلى أقوال كانت ترى أن اللغة نحتت بالأقوال. بعد هذين المصيرين، وهو قول كان يجد من يطمئن إليه قبل أن تفتح العقول إلى النظر الصادق في العصر الحديث

وأقول إن مصادر الثروة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميع المصور وفي جميع البلاد، ولو كان فيه دخيل، وأقول أيضاً إن وجود الألفاظ الدخيلة في أي لغة يشهد لها بالحياة، لأنه يدل على أنها أخذت وأعطت، واللغة التي تسلم سلامة تامّة من الألفاظ الدخيلة لا توجد إلا في القبائل المحصورة بين جدران من الجهل والركود

وعندي أنه يمكن الحكم بأن شعراء الجاهلية لم يكونوا يملكون من الثروة اللغوية مثل الذي نملك، لأنهم عاشوا في آفاق محدودة، ولأن التفوق اللغوي لم يكن من المقاصد التي يشغل بها الناس في القديم على نحو ما يشغلون في هذا الزمان

فكلمة «العرب العرياء» كلمة طليانة، ولكنها لا تنفع بشيء، فجاء العرب الحق، المجد الذي يجله التاريخ، هو مجدهم بعد الفتوحات الإسلامية، وبعد أخذهم ما استطابوا من موارد الشعوب

وهنا حقيقة لم تأخذ قسطها من الالتفات، وهي فضل الدخيل في إمداد اللغة العربية بالثروة لمهد الجاهلية. وبيان ذلك أن جاهلية العرب الملحوظة هي جاهلية قريش، وقريش لم

قال ابن مسكويه « وخرج الجند بالبوقات والطبول » وهو كاتب خلّ يكاد يعاصر المتنبي ، أفلا يكون كلامه شاهداً على أن « البوقات » كانت كلمة اصطلاحية في ذلك الحين ؟ وهل كان يصعب على المتنبي أن يقول « أبواق » لو كانت هي الكلمة التي يريد ؟

وهل نخطئ المتنبي لنصوب من تقدمه عن جهل ، ولنصوب من تقلوا ذلك النقد المنحرف بلا بصيرة ولا يقين ؟ وما الرأي في كلمة « مستشررات » التي عابوها على امرئ القيس منذ اشتغلوا بعلم البلاغة إلى اليوم ؟ ما الرأي وهي أفصح كلمة في هذا البيت :

غداثه مستشررات إلى الملا

تضل المدارى في مشى ومرسل

نقلت عليهم الكلمة فعاوبها ، مع أن ثقلها مقصود ، لأنها بهذا الوصف تمثل ما أراد امرئ القيس

ولو طاعناهم لحذفنا من اللفظة كل لفظة تموزها التسمية واللين ، وهذا مطمح لن يصلوا إليه ، لأن اللفظ الوعر في موطنه مقبول ومنشود

وأنكر الأستاذ لفظة بحرة وقال إنها لفظة لا تعرفها لغة العرب ، فليرجع إليها غير مأمور في القاموس المحيط وأنكر كلمة طيلة . فهل يرى الاستغناء عنها بكلمة طبل ؟ وأنكر كلمة بوقة ، فهل يرجع إليها في تاج العروس ؟ وأنكر كلمة رُبْعة ، فهل يضع مكانها الربيع وهي أصغر من الربيع ؟

وقال إن جمع صناعة على صناع لم يرد في منظوم الكلام ولا منشوره ، فهل يدفع ديناراً على كل شاهد لأظفر منه بمئة دينار أطلع بها كتاب « أدب الشواطيء » ؟ أما بعد فإن مصادر الثروة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميع العصور وفي جميع البلاد ، ونحن نكره أن يكون محصولنا اللغوي محصول جيل أو جيلين ، ونحن مع هذا لا نرحب إلا بالكلمات المأثورة التي صارت نصّاً في الدلالة على أشياء لا يدلّ عليها بغير تلك الكلمات

تعرف حياة العزلة بسبب « البيت » ، فقد جمع حولها الناس ، وعرفها ما لم تكن تعرف من طرائق المعاش ، وطرائف الخيال كان للعرب في الجاهلية ما يزيد عن سبع لغات ، وكان من الصعب أن يتفاهم أهل الشمال مع أهل الجنوب ، فكيف ضُمّعت تلك اللغات وبقيت لغة قريش ؟ يرجع الفضل إلى « البيت » أولاً وإلى الإسلام ثانياً ، ولكن كيف اتفق ذلك ولم تكن مهمة البيت مهمة لغوية ولا كانت رسالة الإسلام رسالة لغوية ؟ يرجع السبب إلى أن الضجيج الاجتماعي والجدال الديني والسياسي مما يزيد في ثروة اللغات . ومن هنا نجد في القرآن وفي الأحاديث ألفاظاً أجنبية منقولة من اللغات الفارسية والبرانية واليونانية والحبشية والمصرية ، لأن ذلك الضجيج وذلك الجدال قسّياً باقتباس تلك الألفاظ من تلك اللغات . وكذلك الحال في كل لغة تعرف أهلها إلى طوائف من الشعوب قولوا الحق ، أيها الناس

هل كان العرب الذين تلقوا القرآن يلتفتون إلى أن كلمة « سندس » كلمة فارسية وأن كلمة « اليم » كلمة مصرية ؟

إن تنقية اللغات من الدخيل فكرة حديثة العهد بالوجود في أكثر بقاع الأرض ، ولعلها لم تعرف إلا بسبب العصبية المصرية ، كالذي وقع حين رأى الفردوسي أن تخلو « الشهنامة » من الألفاظ العربية فيما قبل ، وكذلك وقع من الأتراك فيما بعد ، وهذه وتلك من النزعات الشعوبية ، وهي نزعات تزيد في نفرة الأمم بعضها من بعض ، بلا نفع ولا غناء

وإذا جاز هجر الألفاظ المنقولة من لغات أجنبية فكيف يجوز هجر الألفاظ الأصلية في اللغة العربية ؟

أنا أشوف أن الأستاذ عنتر بجانب الصواب حين ينكر كلمة « شاف » بمعنى « أبصر » مع أن العرب قالوا تشوف بمعنى تطلع

وأنا أشوف أنه أخطأ حين قال : « إن كتب التاريخ ليست متون لغة يُستمد عليها في إثبات الكلمات العربية » ، فأكثر المؤرخين أدباء فضلاء ، ومؤلفاتهم تُمدّ من المراجع اللغوية

المشككين ، لأن الأدب هو مبدع اللغة ، وهو المهيمن على تراثها الثمين .

اللغة ملكٌ لكتابتها وشعرائها وخطبائها ، وليس لقراء المعاجم منها خلاق

ملكّة اللغة تسمى بالفرنسية Sentiment فا شأن من يناقش في اللغة وليس له فيها عاطفة ولا وجدان ؟

كونوا كتاباً وشعراء وخطباء قبل أن تكونوا ناقدين

والا ... وإلا ... عندكم جواب هذا السؤال

محاضرة العقابر !

دعنى المجلة الفلانية إلى محاكمة الأستاذ العقاد بالأسلوب الذى أريد ، فقضيت وتناجيل الحكم إلى حين !

والحق أنى لا أستسيغ مذهب المجلات التى ترى من البراعة

الصحفية أن تؤثر الخصومات بين رجال الأقلام ليتفرج القراء ،

كأن الصحافة صارت ملاعب لا تكلف المتفرجين غير ملاليم !

إن الخصومات الأدبية لا تُقترح ، وإنما تخلقها الظروف ،

فليصبر المتفرجون قليلاً . ألم يسمعوا أن الله مع الصابرين ؟

نحن لا نختصم لنقدم الغذاء لأهل الفضول ، وإنما نختصم

لنؤدى خدمة للفكر والرأى والوجدان ، وسأخاصم العقاد

ويخاصمنى حين تسنح فرصة يكون فيها الخصام من أوطار العقول

ما هذه الشهوة التى لا يقضيها غير عدوان بعض الأقلام على

بعض ؟ وما هذا الشوق السخيف إلى رؤية مناظر الحرب

في غير ميدان ؟

لا قيمة للخصام الأدبى إن لم ينته إلى نتائج صحاح ، فإن لم

يكن بد من خصومة بينى وبين الأستاذ العقاد فسأبحث عن مجال

يحترب فيه المنطق ، ويتصاول البيان

ولكن متى ؟

ذلك إلينا لا إليكم ، يا جماعة المتفرجين بملاليم لا فروش !

التقد الأدبى لن يرخص إلى الحد الذى تصورتموه ، ولن

يكون إلا فضالاً فى ميادين ترفرف عليها أعلام الآراء والأذواق

زكى مبارك

الكاتب البليغ والشاعر المجيد هما أعرف الناس بسرائر اللغة ، وإليهما يرجع الفضل فى إقرار الحقائق اللغوية والأدبية ولا يجوز لمن حُرِمَ ذوق الشعر والكتابة أن يتعرض للنقد اللغوى والأدبى ، فهذا مجال الذوق لا مجال النقل ، وبين الذوق والنقل مساحل طوال

— ومن علماء البلاغة الذين استباحوا التناول على التنبى وامرئ القيس ؟

هل قرأتم مقدمات الكتب البلاغية لتعرفوا ما يملك بعض ملحنى البلاغة من القدرة على الإنشاء البليغ

قال قائل : إن كتب التاريخ ليست بمقون لغة ، فما رأيه فى كتب الفقه الإسلامى ؟

أنا أشوف أن كتب الفقه تحوى ذخائر لغوية نفيسة جداً ،

ولملمها أدت للغة خدمات لم تؤدها كتب الأدب الصّرف ،

لأنها أذهات مرونة التعابير فى كثير من البيئات ، ولأنها حوت

الدقائق من محاورات الناس فى الأسواق

وخلاصة القول أنى لا أعترف بما يسمونه عهد « العرب

الرباء » ولا أدبر بالاً لمن يدعو إلى الاكتفاء بما عرفت العرب

الرباء ، فلو بثت عرب الجاهلية لمحبوا من الثروة اللغوية فى هذه

الأيام ، واعترفوا بأن أحقادهم نجباء نجباء

ثم ماذا ، يا حضرات الأفاضل بالأزهر الشريف ؟

أنتم توجبون أن يطبع المصحف بالرسم المئانى ، فما حجتكم

وهو رسم مجهر منذ أزمان ؟

أكان الخليفة عثمان بن عفان يختار ذلك الرسم لو عاش

فى هذا الوقت ؟

وهل ترضون أن ترجع فيما نكتب إلى الخط العربى فى

عهد عثمان ؟

كان يكفى أن تكون للمصحف نسخة تسمى النسخة

التاريخية ، ثم رسم جميع المصاحف وفقاً للرسم الحديث ، الرسم

الذى اصطلحت عليه جميع البلاد العربية ، لتسهل تلاوة القرآن

على جميع الناس

ثم ؟ ثم أقول إن الأدب لن يلتفت إلى جذقة اللغويين